فاعلية السياق وأثره في بناء عملية الفهم

الدكتور: فيصل كوريفة

faycalmammar88@gmail.com

جامعة علي الونيسي –البليدة 02- (الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2019/11/04 تاريخ القبول: 2019/12/20

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن فاعلية السياق ودوره في تحديد المقاصد والأغراض، وإسهامه الحاسم في بناء عملية الفهم، حيث عُدَّ السياق أهم مرجع يتكئ عليه المتلقي وهو يباشر فعل القراءة والتفسير، ولئن كانت اللفظة الواحدة مصبا للمعاني المختلفة تبعا لتعدد استعمالاتها؛ حيث تجعل مدلولاتها تتقلب آخذة في التناسل والتكاثر، موغلة في الغموض والإشكال، كان السياق عونا لائقا في تحديد الدلالة المقصودة من جملة احتمالات وبلوغ المعنى المراد، وحيث إن الغرض من إنشاء خطاب ما؛ هو توصيل أغراض وتنبيهات إلى المتلقين قصد التأثير والاقناع؛ فإن السياق هو محور نشوء الخطابات الحجاجية المختلفة، وكون اللفظة الواحدة ملتقى لمعان كثيرة، فإن السياق هو الآخر يظل مصبا للعناصر الحجاجية من دلائل وبراهين وحجج.

الكلمات المفتاحية: السياق_ الخطاب_ الدلالة_ القراءة_ التأثير_ التفسير_ المعنى_ الفهم.

Summary:

The purpose of this research is to reveal the effectiveness of the context and its role in determining the purposes and purposes, and its decisive contribution in building the process of understanding, where the context of the most likely to lean on the recipient is doing the act of reading and interpretation, while the single word is the answer to different meanings depending on the multiplicity of uses; The context was a useful help in determining the intended significance of the possibilities and the meaning, and since the purpose of the creation of a speech is to communicate purposes and alerts to the recipients in order to influence and persuade; the context is the focus of the emergence of letters And the fact that the single word is the crossroads of many meanings, the context also remains the source of the pilgrim elements of evidence, proofs and arguments.

Keywords: context_ discourse_ significance_ reading_ influence _ interpretation_ meaning_ understanding.

مقدمة:

ليس يخفى أن الاندفاع نحو تعاطي اللغة والانجذاب إليها؛ طبيعة مركوزة في الانسان من قديم، وهو أمر يلامس الحقيقة العليا التي تقصر اللغة عليه وتجعلها من خواصه البارزة، والانسان بوصفه كائنا تحركه المشاعر، وتتردد في ذهنه الأفكار؛ يظل ميالا إلى التعبير بدافع الابلاغ والبيان، فهو يتفاعل

في ضوء اللغة كونها تمده بإمكانات هائلة يتواصل في ظلها مع محيطه، بحيث تؤهله للتمرس بقيم تعبيرية يختارها بعناية لكيما تنقل أغراضه وأفكاره للمتلقين، وهو بفعله هذا يكون قد شكل دورة تخاطبية، يمثل النسق اللغوي أحد أطرافها.

ولئن كانت العملية التواصلية قائمة على منشئ الخطاب ومتلقي هذا الخطاب، فإن فعل التفسير والبحث عن المقاصد والأغراض؛ يظلّ منصبّا على العناصر التي شكلت الخطاب وساهمت في انتاجه، والذي يبغي البحث عن هذه العناصر فلن يجدها سوى قرائن لغوية وأخرى غير لغوية خارجة عنها، من ها هنا تجيئ هذه المحاولة للبحث في هذه القرائن التي تسمى عندهم (السياق)، فما هو السياق؟ وهل للسياق دور فاعل في بناء عملية الفهم؟

1. تعريف السياق:

- السياق لغة:

يتحدد معنى المفاهيم الاصطلاحية من خلال المعنى اللغوي للفظ، فهو عامل مؤثر قادر على إضاءة الفكر بمعارف توجهه نحو سبر أعماق المفاهيم ذات المعاني الكثيفة، فلا جرم أن المعنى اللغوي أدعى بأن يثبت عند بداية كل بحث في المفاهيم والمصطلحات.

السياق مصدر للفعل سوق، ومنه قولهم: السَّوْقُ: معروف، سَاقَ الابل وغيرها يَسُوقُهَا سَوْقًا وسِيَاقًا، وهو سَائقٌ وسَوَّاقٌ، وقد اِنْسَاقَتْ وتَسَاوَقَتْ الإبل تَسَاوُقًا إذا تتابعت، وكذلك تَقَاوَدَتْ فهي متقاودة ومُتسَاوِقَة، والمُسَاوَقَة:

المتابعة كأن بعضها يَسوُقُ بعضًا، وسَاقَ إليها الصداقَ والمهرَ سِياقًا وأَسَاقَهُ، وإن كان دراهم أو دنانير، لأن أصل الصداق عند العرب الإبل، وهي التي تُسَاقُ، وأَسَاقَهُ إبلا: أعطاه إياها[1]، وهو يَسُوقُ الحديث أحسن سِيَاقٍ، وإليك يُسَاقُ الحديث، وهذا الكلام مَسَاقُهُ إلى كذا، وجئتك بالحديث على سَوْقِهِ: على سرده[2].

المتأمل فيما جاءت به المعاجم من معاني لغوية للفظة "سياق" يجدها قد جعلت الذهن يتحرك بالصور المحسوسة ثم انتقلت به آخذة تستغرق الصور المعنوية متناولة الخطابات والأنساق اللغوية المختلفة.

- مفهوم السياق:

يتأثل مفهوم المصطلح انطلاقا من المعنى اللغوي، بوصفه المعنى المركزي الذي يتيح للباحث النظر في أعماق الألفاظ، لكيما يستشف كوامن ما تنتجه مختلف الاستعمالات من دلالات متباينة، بحيث تدفع المتلقي إلى البحث عن عامل حاسم يتأتى معه تحديد المعنى المراد، ولعل أبرز مرجح يتكئ عليه المتلقي وهو يباشر عملية بناء الفهم؛ عنصر السياق.

جاء مفهوم السياق على أنه "بيئة الكلام ومحيطه وقرائنه"[3] سواء كانت هذه القرائن لفظية أم غير لفظية، غير أنك عند التلقي لست تفصل بين السياق والخطاب، لأن السياق "ذلك الجزء من الكلام المكتوب أو المقول الذي يتبع كلمة ما في القطعة يؤدي إلى المعنى، وبدونه لا يمكن أن يفهم ذلك المعنى"[4] أو يُحدد، نتيجة الالتباس الواقع فيه، لذا كان السياق في عرفهم "ما يصاحب اللفظ مما يساعد على توضيح المعنى"[5] وكشفه، ومن ثم إخراجه من دائرة الغموض الذي يكتنفه، والسياق بوصفه بيئة تتشكل فيها مقاصد الخطاب عبر

مواد اللغة، يلتمس الباحث معناه من تلك التتابعات الأسلوبية التي يجري عليها الكلام وهيكلته، أي التي تنسج مدخلاتها، ومخرجاتها، وفق المنهج السياقي approach context، الذي يسميه بعض اللسانيين منهج الدراسة العملي operational approach، ويمثل المكونات الرأسية التي تحيط بالنص وتتجدد من خلاله أبعاده الدلالية، والجو العام الذي يحيط بالكلمة وما يكتنفها من قرائن وعلامات، فالكلمة الواحدة والجملة الواحدة قد تحمل كل منهما مدلولين متناقضين تماما، دون أن تختلف الكلمة في بنائها الداخلي، وإنما الذي يتغير هو السياق والقرائن المحيطة[6] بالخطاب بشكل عام، فلا جرم أن المعاني التي تنبجس من اللفظة أو العبارة الواحدة لها حمولات دلالية متباينة، اختلافها راجع إلى الاستعمالات وسياقاتها المختلفة، بحيث تنقلب مدلولات الألفاظ وتتكاثر تبعا لبيئة الاستعمال، ومن ثم ينصب التركيز على السياق بوصفه محددا حاسما للمعنى المراد.

2. التلقي وظروف الخطاب:

ما إن بدأت تترسخ فكرة "المعنى داخل النص" وأن المقاصد والأغراض كامنة في أطوائه، وأن فعل التفسير يجب أن لا ينفك عن نسقه اللغوي؛ حتى انبعثت فكرة أخرى أخذت على عاتقها عملية الكشف عن المعنى وتوصيل الفهم، جاعلة النسق اللغوي وظروف انتاجه محور بحثها، حيث راحت تؤكد أن هناك عناصر غير لغوية لها دخل كبير في انتاج الخطاب وتشكيله، ومن ثم فإن أجزاء من المعنى تظل عالقة بها متسربلة بظلالها، فلا غرابة أن "المجال الايصالي الذي ينعقد بين المتكلم والمخاطب قد يتهيأ عن كثب بأن يلقى أحدهما الآخر، وقد يترامى إلى ما هو أوسع من ذلك مدى في المكان والزمان، كالذي يقع في الكلام المسجل والعبارات المدونة في الرسائل"[7] مما يفرض على المفسر الالمام

بملابسات عملية التخاطب وإدراك خصائص عناصرها، لكيما يتم فعل تحديد المعنى من دون تعثر، ذلك أننا "نتكلم في العادة من أجل أن نبلغ هدفا، هذا الهدف يؤثر لا محالة في القول الذي نقول"[8] بحيث يظهر هذا التأثير على مستوى عناصر الخطاب كلها بوصفه طرفا فاعلا في انتاج الخطاب وإخراجه في هيئته النهائية للمتلقين، فعلى مستوى اللغة يدفع المتكلم إلى تقديم عناصر في الكلام الأصل فيها التأخير ويؤخر أخرى الأصل فيها التقديم، كما يلجئه إلى القصر والحصر والتكرار إلى غير ذلك من الظواهر اللغوية ذات الأبعاد الدلالية المعقدة، أما على مستوى العناصر المصاحبة للغة فربما دفعه الهدف إلى الحركة والانفعال.

تتداعى المواد اللغوية وعناصر البيئة وتتضافر معا لتشكل خطابا يموج بالمقاصد والأغراض، على أن "يحتل المتكلم من النظرية البلاغية منزلة مرموقة، فهو طرف أساسي في عملية الكلام وعنصر فعال في تحديد خصائص النص، إذ على عاتقه تقع كلفة إخراجه على سمت يستجيب لمقتضيات الوظيفة والإبانة والمقام"[9]، ذلك أن عملية نقل الأفكار والأغراض فعل يمر عبر شبكة دقيقة تقتضي المهارة في الضياغة والبث، لذا كان على المتكلم "أن يعرف أقدر المعارف ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"[10]، فالمتكلم هو من يقوم بتوزيع العناصر وترتيبها وفق ما يقتضيه الموقف، بحيث يضع كل عنصر الوضع الذي يؤدي فيه وظيفته الإبلاغية في الخطاب، مراعيا حال المتلقي وموقفه من الخطاب، فلا جرم أن المتكلم "مدعو لتحقيق المناسبة المرجوة وحتى لا يخرج عن حد البلاغة، إلى مراعاة الغرض الذي يسعى الحديث إلى تحقيقه، فلا يخلط بين أقدار الألفاظ وأقدار المعاني،

ولا يتصنع الجد حيث يجب الهزل"[11] بوصفه متكلما مقتدرا على استعمال اللغة وترتيب عناصرها وجعلها متآلفة في نسق حتى أنه كأنه وحدة لغوية سيقت دفعة واحدة في شكل رتيب، بغرض الابلاغ والتأثير، ولكأنه خبير بشؤون المتلقين ومقاماتهم وما تنطوي عليه أنفسهم من أغراض.

ولئن كانت اللغة هي المادة التي تصور الخطاب في شكله المنظور، وأن التناسب الواقع بين عناصرها هو الممهد لنشوء علاقات دلالية هي الموجه الرئيس إلى تماسك الخطاب وانسجامه؛ فإن كفلا عظيما من مقاصده تظل ثاوية في عناصر خارجية صاحبت إنتاجه كـ "المناسبة التي قيلت فيها القصيدة، وسبب نزول الآية الكريمة، والبيئة الزمانية والمكانية للنص، أو ما إلى ذلك من اعتبارات لا يمكن إغفال أثرها في الكلام، أو ضرورة الوقوف عليها، والاستئناس بها عند فهمه وتذوقه"[12] بوصفها أجزاء نصية لها دخل كبير تشكل الكلام، أو هي الداعي للخطاب على نحو ما يجده المتلقي ماثلا في صيغة الأمر الواردة في قوله تعالى: "اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير"[13] فالذي يلوح في الذهن من فهم أولي؛ أن كلمة "اعملوا" دالة على معنى الأمر الذي ينبثق من هيئة الكلمة، غير أن معنى الكلمة "يتعدل تبعا لتعدد السياقات التي تقع فيها"[14] سواء كان ذلك السياق متعلقا بما يسبقها أو ما يلحقها من عناصر لغوية، أم تعلق الأمر برصد مجموعة من القرائن الأخرى غير اللفظية، والتي كانت مسرحا لنشوء الخطاب. أو نزوله بالنسبة للنصوص الشريفة.

يلقي المخاطب أغراضه لتقع في قبضة عناصر تواصلية لها قدر مشترك في تشكيل الخطاب، منها ما هو لغوي وهو المسؤول عن الهيئة الظاهرة للكلام، ومنها غير لغوي يتوزع على الحركة والإشارة والبيئة الاجتماعية وظروف أخرى كأسباب نزول الآيات وورود النصوص الشريفة، فالذي يبغي فهم مقاصدها

وتحديد الدلالة فيها يتوجب عليه "استصحاب الأحوال والملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية العملية التي صاحبت نزول النص القرآني ... لابد من هذا الإدراك وجهة النص وأبعاد مدلولاته"[15] هذه العناصر وغيرها هي الدائرة التي كانت مسرحا للخطاب، ومن ثم لا بد أن تكون محل نظر وبحث عند التلقي، فتحديد معنى قول الله تعالى: "اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير"[16] لا يتحقق من خلال صيغة الخطاب، بل من جهة أخرى بدلالة السياق، ومن ثم فإن معنى الآية "تهديد شديد للكفرة الملحدين الذين يلقون في النار وليس المقصود حقيقة الأمر"[17] ذلك أن مقام الخطاب الخاص؛ هو الموجه الحاسم لفعل القراءة نحو معنى التهديد، يتحدد ذلك "عن طريق تأمل السياق القرآني الذي ورد فيه، فهذا الأسلوب قد ورد في سياق الآية التي تصف هؤلاء الذين انطوت نفوسهم على الحقد والضغينة ومقت الإسلام، فاندفعوا يحرفون آيات القرآن ويزيفون في تأويلها بخبث وسوء نية، فالآية تقول: "إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يأتي آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير"[18] فهي تصف هؤلاء بالضلال والالحاد في تأويل آيات الله، وهو وصف مُوحٍ بالعاقبة الوخيمة التي تنتظرهم من الحق -سبحانه وتعالى- فإلحادهم ظاهر مكشوف؛ لأنه في آيات من لا تخفى عليه خافية"[19] والحق أن التعويل على المعنى الذي تفيده بنية الكلمة يدفع بالقراءة نحو التوهم والتعثر ويجعل الوصول إلى الفهم أمرا متعذرا، مما يعين على المتلقي استحضار كل العناصر التي صاحبت الخطاب ويعمل على تجميعها في نسق واحد كونها معطيات نصية تمنحه معارف جديدة تظاهره على فهم المقاصد وتحديدها.

ليس بوسع المتلقي إدراك ما يريد قوله المخاطب وفهم مقاصده إلا من خلال الاستعانة بمعارف جمة يستمدها من خارج النسق اللغوي، وهو من دون توجيهات العناصر الخارجية يستطيع تحديد المعاني المعجمية للكلمات وكذا

معانيها النحوية ووضعها الاعرابي وحقولها الدلالية وغيرها، إلا أن دور هاته الكلمة أو تلك في خطاب المتكلمين يختلف مدلولها من سياق لآخر، فمثلا "الكلمات التي تنتمي إلى نشاط المجموعات الاجتماعية (عقليا أو يدويا) يطلق عليها كلمات الحضارة، كلما تحقق تقدم في الصناعة الانسانية ترجم عن نفسه باستعمال آلات وإجراءات جديدة يقابلها خلق كلمات جديدة بقدرها"[20] تكون هي القالب الناقل للأفكار والمقاصد، "ومن أدل الأمثلة على ما نزعم لفظ (الصمود) المستعمل بعد نشوب الثورات الحديثة بمعنى الثبات والتحدي والصلابة في المقاومة، هذا اللفظ لم يكن معروفا بهذا المعنى، بل لم يكن معروفا البتة، والمعروف الصمد أي القصد والضرب والنصب ومنه الصمد: السيد لأنه يقصد وإلى هذا المعنى ينصرف قوله تعالى: "الله الصمد"[21] أي: المقصود، فلما اشتعلت الأمة العربية حماسة في ثوراتها الحديثة حمّلت الكلمة معنى المقاومة"[22] فكان هذا الخلق ابتكارا جديدا في الدلالة استقر عليه الاستعمال في بيئة معينة وفق مقام خاص، لا يتأتى الكشف عن أغراضها وتحديد المعاني التي تفيدها إلا باستحضار الملابسات التي صاحبتها.

غير خاف أن تحديد مقام الخطاب عون كبير على بناء عملية الفهم؛ كونه المسؤول عن توزيع المقاصد والأغراض على العناصر التواصلية، مما يجعل بقاء اللفظة وثباتها على دلالة واحدة وتأدية معنى واحد أمرا متعذرا، ذلك أن كفلا ضخما من العناصر اللغوية تستمد أبعادها الدلالية من السياقات المختلفة، تدفع المتلقي لإجراء "حركة ذهنية توازن بين مختلف المعطيات، وتناظر بين اللفظ وفحواه الوحيد الملائم للموقف"[23] الذي انتظمه، فالناظر إلى كلمة "العملية" يلفها ذات معنى واحد يدل على مباشرة فعل ما، غير أن انتظامها في خطابات مختلفة المقامات والمواقف يجد مدلولاتها تعددت تبعا لذلك، فهذه الكلمة "العملية" في المستشفيات "لا يسمعها المريض حتى يتصور

الآلات المرعبة والملابس الملوثة بالدماء والجسم وقد طواه الألم طيا"[24] غير أن انتظامها في المجال العسكري يجعلها تشير إلى ذلك الإجراء الأمني المعقد ضد جهة معادية فدلالتها ها هنا خلاف ما أفادته في مجال الطب، وكذلك في عالم المال والصرف، فإن دلالتها تنصرف إلى إفادة معنى تحويل العملة وصب الأجور ودفعها إلى مستحقيها، وهكذا تظل كلمة "العملية" متحولة عن إفادة دلالة لإفادة أخرى نحو قولك: لا زالت عملية التنقيب مستمرة، أو عملية الحفر توقفت منذ مدة، وتجيئ بعد عملية البذر والحرث عملية الحصاد، إلى غير ذلك من التراكيب التي ترد فيها هاته الكلمة بحيث تكتسب دلالاتها من خلال السياق.

للسياق أثر عميق في عملية تشكيل الفعل التواصلي وبناء الخطاب، فهو يسهم بشكل فاعل في الكشف عن العلاقات الدلالية القائمة بين عناصر الخطاب، والذي يبغي البحث عن فاعلية السياق حين القراءة؛ يلفها كامنة في قيمته الفنية، تبرز هذه القيمة في ضوء "تلاحم عناصر النص وتماسكها ونظمها، وأنه لا يمكن أن يكون لأسلوب من الأساليب أو وجه من وجوه التعبير قيمة مطلقة"[25] فتغير المواقف واختلافها يضفي على الأساليب التعبيرية قيما وخصائص فنية مميزة تتواءم ومقام الخطاب.

لا خفاء في أن هناك تطورا حضاريا يطرأ على المجتمعات البشرية، تأخذ التغييرات تتوارد على مجالات الحياة لتشمل اللغة، "فمتى انتقل المجتمع من البداوة إلى الحضارة احتاج إلى ألفاظ يعبر بها عن حياته الجديدة، وما يشيع فيها من أدوات ومؤسسات، فالنظارة في الأصل القوم ينظرون إلى الشيء والمنظار المرآة، فلما تحضر الانسان العربي سمى بهاتين الكلمتين آلتين تساعدانه على تقوية النظر، والسيارة في الأصل القافلة، ثم غدت تدل على هذه الآلة الكثيرة السير، والجامعة الغل يجمع اليدين إلى العنق، والقدر

الجامعة الكبيرة لأنها تجمع الكثير من الطعام، ثم أطلقها الناس على أرقى المعاهد الثقافية والعلمية"[26]

3- الحجاج والسياق:

لعل أبرز العبارات التي لا زالت تمثل ألق الفكر في التراث العربي وتمظهراته الإبداعية في فنون القول وتصاريف الكلام "لكل مقام مقال" كونها جاءت على درجة عالية من البلاغة والبيان، والدقة في الصياغة والإيجاز، حيث وفاقها يكون التخاطب قائما بين المقامات المختلفة، فليس من قبيل اللياقة الأدبية تكليم "سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة، لأن ذلك جهل بالمقامات وما يصلح في كل واحد منهما من الكلام، وأحسن الذي قال: لكل مقام مقال"[27]، حيث أخذت هذه المقولة تستقطب اهتمام الباحثين في البلاغة والنقد حتى غدت هي المعيار الذي يقاس به نجاح أي عملية تواصلية بين المتخاطبين وتحقيق أغراض التواصل.

إن مفهوم المقام حين يهتدي إليه المتلقي وعندما يترقبه حين التناول؛ ليجده كامنا في النص، فـ"هو على أي نحو متضمن داخل التعبير المنطوق بطرقة ما، ويقوم السياق في أحيان كثيرة بتحديد الدلالة المقصودة من الكلمة في جملتها"[28]، بوصفه أجزاء نصية لها دخل كبير في بناء الخطاب وتشكيله، ومن ثم يكون السياق بهذا المعنى؛ محور نشوء الخطابات الحجاجية، كونه "البؤرة التي تلتقي فيها جميع العناصر الحجاجية من مقدرات برهانية وحقائق فعلية وقرائن بلاغية وقيم بشتى أقسامها، وعلاقة هذه القيم بهذه الكائنات والأشخاص المعنيين بخطاب ما"[29] فالسياق يضطلع بمهام خطيرة في الخطابات الحجاجية، ذلك أنه المحدد الحاسم للاختيارات اللغوية والقيم التعبيرية للفعل

التواصلي، فالمواد المعجمية المختارة لمخاطبة الطلاب في الفصل الجامعي ليس نفسها المواد المختارة للتواصل مع محترفي التجارة في الأسواق.

يجيء الخطاب الحجاجي بطراز خاص تميزه القيم التعبيرية الحافلة بالاختيارات المعجمية والأساليب البلاغية المتنوعة، حيكت من قبل خطيب يروم إقناع المتلقي والتأثير فيه، ذلك أن الحجاج خطاب تداولي يقع "في سياق اجتماعي واقتصادي وسياسي وإيديولوجي، وبهذا فهو يندرج ضمن نظم متعددة كالمنطق والفروع المختلفة من دراسة اللسان والأنظمة الرمزية (لسانيات تحليل النصوص والخطابات والدلالة) وعلم النفس وعلم الاجتماع التربوي والتواصلي"[30] يضفي عليه السياق سمات دلالية دقيقة ومميزة تُشعِر بالملابسات المصاحبة، بوصف مصبا تلتئم عنده الذات المخاطبة وادوات التفسير وأساليب الاقناع وطرق البرهنة والتأثير.

يظل الفرد معرضا لمحاولات كثيرة قصد التأثير والاقناع، فحيثما كانت وجهته فهناك محاولة تهدف إلى تغيير رأيه أو موقفه تجاه قضية أو إزاء شيء معين، كعقود البيع والشراء، فالبائع يبذل جهده لكيما يقنع المشتري بجدوى الصفقة وفوائدها، وليست قاصرة عملية التأثير والاقناع على البيع والشراء، وإنما تستغرق جميع نواحي الحياة كلها، حيث تنتظم اختيارات كثيرة كالمدرسة المناسبة والبيت الملائم والسيارة المريحة والزوجة الصالحة، كما تعمد وسائل الإعلام المختلفة إلى بث الخطابات بشكل يومي بهدف اقناع المتلقي باتخاذ موقف سياسي أو غض الطرف عن قضية ما، حتى أن الخطاب المسجدي هو محاولة حجاجية تروم إقناع رواده بتعاليم الإسلام والاستمساك بهديه القويم[31]، ومن ثم تكون سمة الحجاج منخلعة على كافة الأداءات التواصلية، مستغرقة جميع مناحي الحياة ومجالاتها المتعددة.

تظل اللغة مثابة المتخاطبين بوصفها الميدان الذي يظاهرهم على ترتيب أغراضهم في نسق منتظم وتوزيعها على أجزاء الكلام حين التخاطب، ولئن كان رجاء الاقناع والتأثير هو غاية كل خطاب حجاجي؛ فإن "من مشاغل الخطيب أن يخرج ما يتبره مهما بالنسبة إلى حجاجه من حيز الغياب إلى حيز الحضور، كما أن عليه أن يشدد على بعذ العناصر الحاضرة في أذهان سامعيه، فيجعلها أكثر حضورا فيها، ومن هنا يأتي دور الخطابة؛ فهي؛ من حيث إنها تقنية، تتيح لنا أن نسلط العقل على الخيال من أجل أن نحرك الإرادة"[32] ونجعلها خادمة لأهداف الخطاب، آخذين في الاعتبار أحوال المتلقين وظروفهم، والخطيب إذ يرعى مقامات المخاطبين؛ فإنه يسعى لإثارة الحفائظ والعمل على حشد الحجج والبراهين تمهيدا لاستقرار الخطاب في أذهانهم ونزوله موقع القبول.

يصوغ الخطيب مقاصده بطائفة من الاختيارات المعجمية المختلفة، فيها تمور الدلالات ومنها تنبثق المعاني تفتأ تقتحم على الذهن سكونه، آخذة به نحو القراءة والتأمل، والحق؛ أن الحجاج خطاب تداولي يقوم على كفل كبير من الحجج والدلائل قصد الاقناع والتأثير، غير أن هذه الدلائل والحجج "قد تكون ظاهرة أو مضمرة بحسب السياق، والشيء نفسه بالنسبة للنتيجة والرابط الحجاجي الذي يربط بينهما، ويمكن أن نبين هذا على الشكل التالي:

- أنا متعب، إذن أنا بحاجة إلى الراحة.
- أنا متعب، أنا بحاجة إلى الراحة.
- أنا متعب.
- أنا بحاجة إلى الراحة"[33]، جلي في هذا المقتبس؛ أن الحجة فيه قد تراوحت بين الظهور والاضمار، وهو ما يجعل المتلقي يتكئ على

السياق محاولا كشف الحجج الظاهرة وتحديد معانيها، وتجلية المضمرة منها وإظهارها، والسياق بوصفه مدخلا قرائيا يسهم بشكل فاعل في تحديد المقاصد وتحقيق الفهم؛ فهو عون كبير على تماسك الخطاب وانسجامه، ذلك "أن الخطاب القابل للفهم والتأويل هو الخطاب القابل لأن يوضع في سياقه، بالمعنى المحدد سلفا، إن كثيرا ما يكون المتلقي أما خطاب بسيط للغاية (من حيث لغته) ولكنه قد يتضمن قرائن (ضمائر أو ظروفا) تجعله غامضا غير مفهوم، بدون الإحاطة بسياقه، ومن ثم فإن للسياق دورا فعالا في تواصلية الخطاب وفي انسجامه بالأساس، وما كان ممكنا أن يكون ممكنا أن يكون للخطاب معنى لولا الالمام بسياقه"[34] فلا جرم أن معرفة صيغ الخطاب وطريقة التصاق المعنى باللفظ والخبرة بأساليب الكشف عن العلاقة القائمة بينهما أمارة على تلقٍ مثالي وفهم دقيق لمقاصد الخطيب وأغراضه المختلفة.

4. الخاتمة:

يستنتج مما سبق؛ أن الخطاب فعل تداولي تظاهرت على تشكيله عناصر لغوية وأخرى غير لغوية، ومن ثم تجيء أغراضه ومقاصده موزعة على ما هو حرفي، بحيث تستشف من المعنى اللغوي للألفاظ على اختلاف استعمالاتها، وأخرى يشعر بها المجاز في سياق الاستعمال.

ولئن كان الخطيب على قدر كبير من الاهتمام والدرجة حين القراءة والتحليل؛ بوصفه منشئَ الخطاب ومخرجه في صورة مثالية من البلاغة والبيان، فإنه لا يعدو كونه أحد أطراف العملية التواصلية التي تأخذ في الاعتبار أحوال المتلقين وظروفهم ومقاماتهم المختلفة، وحتى يكون التفاعل

قائما بين الباث والمتلقي ويتحقق غرض التواصل ويحصل الفهم؛ يتعين على المخاطب التنويع في اختياراته المعجمية والقيم التعبيرية التي تجعله في وضع يؤهله إلى مستوى التأثير في المتلقين وإقناعهم برسالته وقضاياه، ومن ثم فإن المقام (السياق) هو البوتقة التي تلتقي عندها عناصر الحجاج، وتترافق جميعها لكيما تشكل خطابا تداوليا قائما على الدلائل والبراهين يستمد طاقاته التواصلية من أفعال الكلام.

5. قائمة المصادروالمراجع:

القرآن العظيم.

- ابن منظور: لسان العرب، مج3، ج24، ص2153-2154، مادة (س، و، ق).

- الزمخشري: أساس البلاغة، ج1، ص484، مادة (س، و، ق).
- ابراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية، دار ابن رشد، بيروت.
- نواف نصار: معجم المصطلحات الأدبية "عربي انجليزي"، دار المعتر، عمان ،الأردن، ط1، (2011).
- محمد أحمد أبو الفرج: المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث، دار النهضة العربية.
-ينظر: الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية، (عبد القادر عبد الجليل)، دار صفاء، عمان، 2002.
- لطفي عبد البديع: التركيب اللغوي للأدب (بحث في فلسفة اللغة والاستطيقا)، دار المريخ، الرياض.
- مصطفى ناصف: اللغة والتفسير والتواصل، عالم المعرفة، الكويت.
- حمادي صمو: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، منشورات الجامعة التونسية.
- الجاحظ: أبي عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط7 (1998)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج1.

- حسن طبل: علم المعاني في الموروث البلاغي، تأصيل وتقييم، مكتبة الأبحاث، القاهرة، ط2، 2004.
- أحمد مختار عمر: علم الدلالة، ط5 (1998)، عالم الكتب، القاهرة.
- سيد قطب: في ظلال القرآن، ط32 (2003)، دار الشروق، القاهرة، مج4، ج14.
- الألوسي: العلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج24.
- جوزيف فندريس: اللغة، تر: عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص، تقديم: فاطمة خليل، المركز القومي للترجمة، القاهرة.
- غازي مختار طليمات: في علم اللغة، ط2 (2000)، دار طلاس، دمشق.
- فايز الداية: علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق –دراسة تاريخية، تأصيلية، نقدية، ط2(1996)، دار الفكر، دمشق.
- جوزيف فندريس: اللغة.
- أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري: كتاب الصناعتين- الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي- محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1 (1952)، دار إحياء الكتب العربية.
- محمد حماسة عبد المطلب: النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي-الدلالي، ط1، (2000)، دار الشروق، القاهرة.
- محمد سالم ولد محمد الأمين: مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، مجلة علم الفكر، مج28، العدد3، يناير-مارس، 200.
- سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي –بنيته وأساليبه-، ط2، (2011)، عالم الكتب الحديث، الأردن.
- ينظر: نظريات في أساليب الاقناع –دراسة مقارنة- (علي رزق)، ط1، (1994)، دار الصفوة، بيروت18.
- عبد الله صولة : في نظرية الحجاج –دراسات وتطبيقات- ط1، (2011)، مسكيلياني، تونس.
- أبو بكر العزاوي : اللغة والحجاج، ط1، (2006).

-محمد حطابي: لسانيات النص –مدخل إلى انسجام الخطاب- ط1، (1991)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

6. الهوامش:

[1]- ابن منظور: لسان العرب، مج3، ج24، ص2153-2154، مادة (س، و، ق).

[2]- الزمخشري: أساس البلاغة، ج1، ص484، مادة (س، و، ق).

[3]- ابراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية، دار ابن رشد، بيروت، ص201.

[4]- نواف نصار: معجم المصطلحات الأدبية "عربي انجليزي"، دار المعتز، عمان ،الأردن، ط1، (2011)، ص160.

[5]- محمد أحمد أبو الفرج: المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث، دار النهضة العربية، ص116.

[6]-ينظر: الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية، (عبد القادر عبد الجليل)، دار صفاء، عمان، 2002، ص211-213.

[7]- لطفي عبد البديع: التركيب اللغوي للأدب (بحث في فلسفة اللغة والاستطيقا)، دار المريخ، الرياض، ص78.

[8]- مصطفى ناصف: اللغة والتفسير والتواصل، عالم المعرفة، الكويت، ص11.

[9]- حمادي صمو: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، منشورات الجامعة التونسية، ص248.

[10]- الجاحظ: أبي عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط7 (1998)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج1، ص138-139.

[11]- حمادي صمو: التفكير البلاغي عند العرب، ص211.

[12] - حسن طبل: علم المعاني في الموروث البلاغي، تأصيل وتقييم، مكتبة الأبحاث، القاهرة، ط2، 2004، ص14.

[13] - سورة فصلت: الآية40.

[14] - أحمد مختار عمر: علم الدلالة، ط5 (1998)، عالم الكتب، القاهرة، ص69.

[15] - سيد قطب: في ظلال القرآن، ط32 (2003)، دار الشروق، القاهرة، مج4، ج14، ص2121-2122.

[16] - سورة فصلت: الآية40.

[17] - الألوسي: العلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج24، ص127.

[18] -سورة فصلت: الآية40.

[19] - حسن طبل: علم المعاني في الموروث البلاغي، تأصيل وتقييم، ص16-17.

[20] - جوزيف فندريس: اللغة، تر: عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص، تقديم: فاطمة خليل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ص283.

[21] - سورة الإخلاص: الآية2.

[22] - غازي مختار طليمات: في علم اللغة، ط2 (2000)، دار طلاس، دمشق، ص229.

[23] - فايز الداية: علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق –دراسة تاريخية، تأصيلية، نقدية، ط2(1996)، دار الفكر، دمشق، ص217.

[24] - جوزيف فندريس: اللغة، ص281.

[25] - حمادي صمو: التفكير البلاغي عند العرب، ص528.

[26] - غازي مختار طليمات: في علم اللغة، ص230.

[27] - أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري: كتاب الصناعتين- الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي- محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1 (1952)، دار إحياء الكتب العربية، ص27.

[28]- محمد حماسة عبد المطلب: النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي-الدلالي، ط1، (2000)، دار الشروق، القاهرة، ص98.

[29]- محمد سالم ولد محمد الأمين: مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، مجلة علم الفكر، مج28، العدد3، يناير-مارس، 200، ص83.

[30]- سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي –بنيته وأساليبه-، ط2، (2011)، عالم الكتب الحديث، الأردن، ص42.

[31]- ينظر: نظريات في أساليب الاقناع –دراسة مقارنة- (علي رزق)، ط1، (1994)، دار الصفوة، بيروت، ص17-18.

[32]- عبد الله صولة : في نظرية الحجاج –دراسات وتطبيقات- ط1، (2011)، مسكيلياني، تونس، ص31.

[33]- أبو بكر العزاوي : اللغة والحجاج، ط1، (2006)، ص18-19.

[34]-محمد حطابي: لسانيات النص –مدخل إلى انسجام الخطاب- ط1، (1991)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص56.